بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في هذا الكتاب صورة لا سيرة، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام.

وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثا ضخما في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة، أو كان الرجل الشجاع الرأي وحده جحفلا لجبا. فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام.

فإلى الجيل الذي يتلفت يمنة ويسيرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع، هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح.

إن أبصارنا في أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضي معا، لأن الماضي مركز الثقل الذي يحفظ توازننا، فلا نقبل على المجهول إلا وفي أيدينا قدر كاف من المعلوم، ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا. وإذا كنا إلى اليوم لم نغترف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحي.

لنقل للمترددين مقالة البحارة في سفينة بالمحيط الأطلسي للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل، فرغ منها الماء العذب فصاحوا في طلبه، وأجابهم بحارة المحيط: "ألقوا دلوكم حيث أنتم" فأعاد المستغيثون طلب الماء، وكان الجواب دائما: "ألقوا دلوكم حيث أنتم"، حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذبا فراتا لذة للشاربين، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون، حيث يدفع النهر ماءه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون.

obeikandi.com

لنلق الدلاء حيث نحن، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز.

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، أو فتى كسيف الإسلام خالد بن الوليد، أنقذ الإسلام من ردة المرتدين فكانت يده في حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها.

إذا كان نابليون قد فاخر "بقانون نابليون" أكثر مما فاخر بمواقعه الستين التي أذهل بها عبقرية الحرب،وكان كل حظ القانون منه أنه صدر في عهده، فكيف بأبي حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين في الإسلام، والإمام الأعظم للأئمة وللمشترين. في كل نبضة من نبضات قلبه هداية. بالعلم وبالقدوة، إلى شجاعة نفس، وكفاح متصل، جلت للناس عمله في بناية الحضارة الإسلامية وحياطتها بما أشاعه في كيان الفقه من عناصر الخلود، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأي، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير في الحياة الدنيا إذا زينت لهم بمصباح الفقيه.

ولما تعارض الفكر والسلطان، أو الفقيه والخليفة، كانت كلمة الفكر هي العليا.

ألا إن لنا في الإمام الأعظم قدوة حسنة، وتأسيا في التضحيات، ونحن في مفترق الطرق. فلنقتد بهداه. ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة. ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن إفلاسها في الحربين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح.

لنتمثل بأبطال حضارتنا، ونستمسك بأسباب نهضتنا.

لقد اعتز الإسلام بأسبابه، عندما استمسك أبناؤه بآدابه، فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه.

وبحسب القارئ هذا المثل للرجل العظيم الذي أجرينا ذكره على الصفحات التالية.

obeikandi.com